شحادة الخوري
رائد العمل العام
(١٩٢٢-٢٠١٦)

أ. د. عبد النبي اصطيف(*)

يستطيع المتأمل في حياة شحادة الخوري (١٩٢٢-٢٠١٦)، فقيد سورية، وفقيد العروبة، وفقيد قضايا الترجمة، أن يتبين سلكاً ذهبيًّا يتخلل جميع فصولها هو سلك «**العمل العام**». فقد نذر شحادة الخوري، (الذي ولد في الأول من كانون الأول عام ١٩٢٢ في بلدة صيدنايا، وتوفي في دمشق صباح يوم الثلاثاء، العشرين من شهر أيلول من هذا العام ٢٠١٦)، نفسه لخدمة مجتمعه وبلده وأمته، ولرعاية انفتاحها على المنجز المعرفي: الفكري والثقافي والأدبي واللغوي للأمم الأخرى.

فبعد أن أنهى دراسته للثانوية السورية (القسم الأول)، ودراسته للثانوية الفرنسية (القسم الأول) عام ١٩٤٢، انتقل إلى **ثانوية جودة الهاشمي** (التي كانت تعرف آنئذ بالتجهيز الأولى)، لدراسة الشهادة الثانوية (القسم الثاني، فلسفة) في العام الدراسي ١٩٤٢-١٩٤٣، ولكنه لم يوفق في دراسته لانصرافه

(*) أستاذ في جامعة دمشق - كلية الآداب.

وردت المقالة إلى مجلة المجمع بتاريخ ٣٠/ ٥/ ٢٠١٨م.

إلى العمل العام الذي نذر نفسه من أجله، وهو انخراطه في حركات التظاهر الطلابية ضد السلطات الفرنسية المحتلة.

غير أنه لم يكتف بذلك؛ إذ انصرف منذ عام ١٩٤٣ إلى التدريس (في **مدرسة قطنا الأرثوذكسية**، ثم في **إعدادية الآسية للبنات**، ثم في ثانويات مدينة حلب مدرساً للتاريخ والتربية الوطنية، ثم في ثانويات مدينة دمشق الرسمية والخاصة، ولاسيما الآسية حتى نهاية عام ١٩٥٨).

ولم ينسَ طوال هذه الفترة من العمل العام **مسألة الارتقاء بتأهيله المعرفي الذي اتخذه سبيلاً للارتقاء بعمله العام**، إذ حصل فيها على شهادة الدراسة الثانوية (القسم الثاني – فلسفة)، وعلى الإجازة في الحقوق، وعلى الإجازة في اللغة العربية وآدابها، من جامعة دمشق، مما أهَّله ليتوسع في هذا العمل، فيجمع إلى النضال ضد المستعمر، الكتابة والتأليف في قضايا مجتمعه الناهض المتحرر حديثاً من ربقة هذا المستعمر. وهكذا نراه يصدر كتاب «**حول المرأة**» بالاشتراك مع نجيب جمال الدين عام ١٩٤٧، وكتاب «**تاريخ الأمة العربية في الجاهلية وحتى اليوم وتاريخ المخترعات**» بالاشتراك مع عبد الفتاح محبك عام ١٩٤٩، وكتاب «**الأدب في الميدان**» عام ١٩٥٠، وكتاب «**فصول في الأدب والتربية والحياة العامة والاجتماع**»، عام ١٩٥٦، فضلاً عن قيامه بترجمة رواية «**الحرس الفتي**» بالاشتراك مع القاص ليان ديراني في عامَيْ ١٩٥٤ و١٩٥٥، ونشره عشرات المقالات المتصلة بموضوعات القومية والأدب والاجتماع والتربية.

وإلى جانب مشاركاته في نصرة القضايا القومية (**لجنة نصرة العراق** – في فترة الحرب العالمية الثانية)، ونشاطاته اليسارية، أسهم في تأسيس (**رابطة الكتاب السوريين**)، ثم (**رابطة الكتاب العرب**)، وكوفئ على هذه النشاطات ملاحقة من جانب سلطات حسني الزعيم، ومحاكمة من جانب سلطات أديب

الشيشكلي، وتسريحاً من وزارة التربية بعد حل الأحزاب وملاحقة العناصر اليسارية، وتسريحاً لاحقاً من عمله في **وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل** في زمن حكومة معروف الدواليبي.

وأسهم في تأسيس **اتحاد الكتاب العرب، وجمعية المكتبات والوثائق** في القطر العربي السوري، وانتخب رئيساً لها مدة عامين (١٩٧٥-١٩٧٦).

انضم شحادة الخوري في عام ١٩٦٠ إلى وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، رئيساً لدائرة التسجيل التعاوني، ثم مديراً لدائرة التدريب التعاوني، فمديراً للعلاقات الدولية، فمديراً للتخطيط، ثم مديراً لإنعاش الريف، حيث عني بتطوير مشروع الصناعات الريفية خاصّة وجعله مشروعاً إنتاجيًّا، بعد أن كان مجرد مشروع تدريب. واستمر في عمله هذا حتى عام ١٩٦٩، عندما انتقل إلى وزارة التعليم العالي مديراً للترجمة والنشر، حيث جهد في سبيل إنجاح مشروع الوزارة في ترجمة أمهات الكتب العلمية، لتكون مراجع مفيدة للطلاب والأساتذة الجامعيين.

وقد تعرفتُ شحادة الخوري في فترة عمله في **وزارة التعليم العالي**، إذ حرصت في فترة دراستي الجامعية على متابعة **أحدث ما تنشره وزارتا الثقافة والتعليم العالي من كتب مترجمة تتصل باهتماماتي الأدبية والنقدية واللسانية والعلوم الإنسانية عامة**، وكان الدكتور حسام الخطيب **رئيس قسم اللغة العربية وآدابها** آنذاك وراء هذا الحرص، إذ كان المحفِّز الأكبر لطلابه في انفتاحهم على الثقافات الأجنبية، ولا سيما الغربية منها.

وعندما أوفدتني **جامعة دمشق** إلى **جامعة أكسفورد** عام ١٩٧٩ للحصول على درجة الدكتوراه في النقد المقارن وإعداد رسالة في **المؤثرات الأجنبية في النقد العربي الحديث**، كان لا بد من زيارته في الوزارة، وفي منزله العامر في

الفيلات الشرقية لاستكمال معرفتي بنشاطات أعضاء **رابطة الكتاب السوريين ورابطة الكتاب العرب** في المجال النقدي، ولاستشارته في بعض الأمور المتصلة بالنشاط النقدي في عقد الخمسينيات خاصة، ومتابعة النشاطات الترجمية للوزارة عامَّة. والحقيقة أن شحادة الخوري لم يبخل علي بوقته وخبرته، وكانت بيننا مراسلات عديدة كان من حصيلتها حوار مطول قدمت له بمقدمة عن الخمسينيات السورية نشرته مجلة **المعرفة** في عدد أيار من عام ١٩٨٠ تحت عنوان: «**أضواء على الخمسينيات السورية**». وكنت قد ألقيت محاضرة بالإنكليزية عن الحركة اليسارية في النقد العربي الحديث تعرضت فيها لكتابه **الأدب في الميدان**، وذلك في **مركز الشرق الأوسط** التابع **لكلية سانت أنطوني، جامعة أكسفورد**، في ربيع عام ١٩٧٨، أفدت فيها من أحاديثي ومراسلاتي مع الرجل الذي كان يرى في مساعدتي ضرباً من العمل العام الذي نذر حياته من أجله.

وعندما عُدت من إيفادي عام ١٩٨٣، افتقدت شحادة الخوري في دمشق، وبعد تواصل مع أصدقائنا المشتركين تبينت أنه ترك **وزارة التعليم العالي** (بعد أن نشرت الوزارة في فترة توليه مديرية الترجمة أكثر من سبعين كتاباً)، وأنه التحق خبيراً في «**وحدة الترجمة**»، **بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) بتونس**، وسرعان ما عاودت التواصل معه، لنلتقي كلما زار الرجل دمشق، أو قصدها لعمل يتصل بالمنظمة، في داره العامرة، أو في «**مركز بحوث التعليم العالي**» التابع لألكسو، الذي كان يديره آنذاك المرحوم الدكتور مصطفى حداد رحمه الله.

وأذكر، فيما أذكر، أنه حدثني في إحدى زياراتي له في منزله أنه ينوي أن يُعِدَّ رسالة دكتوراه في ميدان الترجمة والتعريب، وقد شجعته على ذلك،

ووعدته بتقديم ما بوسعي لرد جميل مساعدته لي في أثناء دراستي للدكتوراه. ويبدو أن انصرافه للعمل المجمعي من جانب، وارتباطه بالمنظمة العربية للترجمة، واتحاد المترجمين العرب من جانب آخر، لم يتركا له الوقت الكافي لتحقيق هذه الأمنية الغالية عليه. كما أذكر تقديمه حفيده شادي لي في إحدى زياراتي له، وإهدائي ترجمة لديوانه بالإنكليزية، ولقائي بهذا الأخير وتشجيعه وحفزه على متابعة دراسة الأدب المقارن، بعد أن علمت بمهاراته اللغوية.

ويبدو أن عمل شحادة الخوري في مديرية الترجمة في **وزارة التعليم العالي** قد فتح عينيه على **حيوية الترجمة ودورها الخطير في الانفتاح على الثقافات الأجنبية والإفادة منها في عملية التنمية الشاملة للمجتمعات العربية**، فخصص فترة ما بعد تقاعده من العمل في الوزارة **لقضية الترجمة في الوطن العربي**، واختار العمل في «**ألكسو**» للعناية بهذه القضية الحيوية التي قدّم لها الكثير بدءاً بوضعه «**الخطة القومية للترجمة**» عام ١٩٨٥، التي أقرها المجلس التنفيذي للمنظمة ومؤتمرها العام، وانتهاءً بإسهامه بتأسيس جهازين تابعين للمنظمة يخدمان قضية الترجمة، ومسائل التعريب المرتبطة بها، وهما:

«**المعهد العربي العالي للترجمة**» الذي افتتح في الجزائر العاصمة عام ٢٠٠٥، و«**المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر**»، الذي افتتح في دمشق عام ١٩٩١، ولايزال يصدر الترجمات القيمة، ومجلة «**التعريب**»، حتى يومنا هذا.

وقد تخلل ذلك تحريره وإعداده «**دليل المترجمين ومؤسسات الترجمة والنشر في الوطن العربي**» عام ١٩٨٧، وكتاب «**دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي**»، الذي صدر جزؤه الأول عام ١٩٨٥، وجزؤه الثاني عام

١٩٨٧، وإسهامه في مراجعة «المعجم العربي الأساسي»، الذي صدر عن المنظمة عام ١٩٨٩ والتقديم له.

عندما سئل (رينيه ويليك) René Wellek (١٩٠٣-١٩٩٥)، «**ناقد النقاد الأسمى**» The supreme critic of critics عن فترة تقاعده من **جامعة ييل** عام ١٩٧٢، وهل كان يروقه التحرر من العمل الأكاديمي في تلك الجامعة العريقة والمرموقة، أجاب: «**إنني أستمتع به، ولكني أفتقد الإجازات**»؛ لأنه لم يعد يظفر بها، نتيجة عمله الدائب في خدمة نظرية الأدب والدرس المقارن له.

والحقيقة أن شحادة الخوري كان يفتقد إجازات عمله الرسمي بعد عودته من تونس، إذ انتخب رئيساً **لاتحاد المترجمين العرب** في مؤتمره الأول الذي عقدته **المنظمة العربية للترجمة** في بيروت عام ٢٠٠٢، وهو العام نفسه الذي انتخب فيه عضواً في **مجمع الخالدين، مجمع اللغة العربية بدمشق**، وعمل ما وسعه الوقت والجهد وصحة البدن في خدمة هاتين المؤسستين، متابعة لعمله العام الذي كان لنا منه أكثر من عشرين كتاباً، وعشرات الدراسات والبحوث، التي قصد بها خدمة مجتمعه، وبلده، والأمة العربية، بخدمة اللسان العربي وما دُوّن به، وما ترجم له، فكان «**أمثولة العامل المتفاني في العمل العام**»، الذي نذر نفسه له، والذي نذرته أمه له، إذ دعته «شحادة»، فكان هدية الباري لأسرته ووطنه وللأمة، فجزاه الله عنا خير الجزاء، وجعلنا نتأسى به في خدمة أهلنا، ووطننا، والأمة العربية.

* * *